الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

الإعجاز القرآني من المنظور البلاغي عند الباقلاني وأثره في منهج الدراسات الاستشراقية الحديثة

Quranic Miracles and their Impact on Modern Oriental Studies:A Rhetorical Perspective by Albaqilani

أ.فتوح محمود
أستاذ مكلف بالدروس، البلاغة والنقد، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
mahmoud.fettouh@gmail.com

ملخص

يعالج هذا البحث قضية من قضايا إعجاز القرآن الكريم التي كثّر الحديث عنها، وسال عليها الحبر الكثير وأثارت حافضة المفسرين وعلماء البيان واللغويين على اختلاف أزمانهم، في تحليلها وتفصيلها، فكشفوا الغطاء عن كثير من أسرارها، ووضعوا أيديهم على جانب عظيم في حقائقها، وهذا الجانب هو الذي يتعلق بالنظم الفريد والفصاحة الفذة الجارية على لسان البلغاء، ومتداولة على ما ينطق به العرب في لغتهم، وهي ميزة خُصت ببلاغته الفريدة، وألفاظه الفصيحة، ونظمه المحكم البديع، وتصويره الفريد الذي لم يوجد له مثال.

والدراسة أرست عند لسان الأمة وسيف الإسلام، العالم الأشعري الباقلاني (ت403هـ) الذي أفرغ كل جهده لمنافحة الملحدين ورد مطاعنهم، وإقراره بإثبات عروبة القرآن، وأنه جار على لسان العرب، وهو معجز بنظمه المحكم الذي لا طاقة للبشر به، وليبرهن على أقواله راح ينفي أمور عن القرآن الكريم ويثبتها من جهة أخرى، فنفى استفادة الإعجاز البلاغي من جهة البديع التي نادى بها الرماني قبله، وكذلك الشعر والسجع من القرآن باعتبارهما من الأساليب البشرية، والتي وجد فيها النقص ومحتواها الخلل والاضطراب، واستنتج أن النظم البلاغي للقرآن الكريم محكم النسج، فهو يعلو ولا يُعلى عليه.

وقد أثرت هذه الدراسة _التي أبدعها الباقلاني_ حافظة المستشرقين على اختلاف مشاربهم وتنوع ثقافتهم في النهل من معين أفكار هذا العالم الجليل، وذلك بتتبع خطاه والاستفادة من الدراسات القرآنية التي خدمت النصوص الأدبية واللغوية وأصدرت الأحكام النقدية وما أنتجه من تقويم لغوي لرفع من مستوى ثقافتهم العلمية وتطوير الجوانب المعرفية لمواصلة البحث والاستفادة من الدراسات القرآنية الأدبية منها واللغوية.

الكلمات الدالة :الإعجاز، القرآن، البلاغة، الباقلاني، الاستشراق.

Abstract

The current proposed study investigates one of the Qur'an miracles that has been extensively discussed and written about by various scholars and linguists over time in an attempt to analyze and explain it. Their efforts have contributed to a bulk of knowledge. The point in discussion in this research is the Qur'an Rhetoric envisaged properly in textual features such as eloquent vocabulary and unique figurative language.

Albaqilani, an Ash'ari Muslim scholar, pioneered Qur'an rhetoric research ever since. He centered his effort around refuting atheists claims so as to prove the fact that Qur'an is above all a holy text written originally in Arabic; so unique in its textual features that no human being could ever draft it. He further refuted the argument, held by the scholar Romani, that Qur'an took some features from poetry or other similar texts.

The Albaqilani's thorough research has enormously influenced Orientalist scholars regardless of their cultural affiliations to the extent that they have held his views about the Qur'an rhetoric. In addition, Orientalist scholars use Qur'an studies to enhance their scientific background and research procedures.

Key words : *:Miracles, Quranic,Rhetoric,Albaqilani,Oriental.*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة

لقد خصّ الله سبحانه وتعالى اللغة العربية بعظيم الشأن، حينما شرّفها بنزول أفضل الكُتب على أفضل العجم والعرب، وعظّمها ورفع خطرها وكرَّمها، وأوحى بها إلى خير خلقه، لعلو مكانتها وسَمقها في البيان، بجعلها "حِلية لنظم القرآن وعَلِقَ بها الإعجاز، فصار دلالة على النبوة"[1]، من مبدأ أنها "خير اللغات والألسنة"[2]، ولذا عدّها لغة الخطاب بينه وبين خلقه في الدنيا والآخرة، وفقا لما أشار إليه الحديث: « تعلّموا العربية وعلموها الناس؛ فإنها لسان الله يوم القيامة ».

ولما كانت قضية الإعجاز القرآني من أبرز قضايا البلاغة التي انصب عليها اهتمام الباحثين؛ فإن خصوم الإسلام أفزعوا من ذلك، وهذا ما نشط علماء الإسلام ليدحضوا هذه الشبهات ويزيلوا كل ما هو عائق ضد الإسلام، وكانت لهذه المهمة دفعة قوية من علماء الإسلام لكي يشتغلوا بالدراسات القرآنية، وأن يعرفوا كتاب الله الذي هو الضوء المنير في دياجي الظلام لعقيدة هذه الأمة، في بيئة المتكلمين عامة، والأشعرية خاصة.

فقد عكفوا على دراسة القرآن، والبحث في سر إعجازه، فقالوا:"إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه هو علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى... والإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن، من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع"[3].

فالوقوف على إعجاز القرآن، وإدراك نظمه لا يقوم إلا على تفهم البلاغة ومعرفة الفصاحة، وبهذا نجد أن البلاغة تُدين للقرآن الكريم بالفضل في نشأتها وتطورها، فقد أفادت منه إفادة كبيرة خاصة في الدراسات الوفيرة التي أُلفت حول النظم الحكيم وبيان إعجازه، حيث "كانت هذه الدراسات من أهم العوامل التي ساعدت على نشأة البلاغة، وأمدتها بفيض زاخر من الملاحظات البيانية، التي أثرت البحوث البلاغية على مدى القرون. فالوقوف على إعجاز القرآن، وإدراك نظمه، واجتلاء أسراره، لا يقوم إلا على تفهم البلاغة، ومعرفة الفصاحة"[4]؛ لأن الناس احتاجوا إلى فهم آياته وأحكامه، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يُفسر لهم ما يُستغلق، ويوضح لهم الغامض ويساعدهم على فهم الحكم القرآني.

وقد وقفنا على هذا الدراسة البسيطة حتى نلم بوجهة نظر الباقلاني حول الإعجاز القرآني من الوجهة البلاغية، وكيف كان ينظر إلى القرآن بأنه معجز وأدلة ثبوته، ودحض مزاعم معارضيه، وتبيين مزاياه البيانية التي أعجزت البشر على طور السنين.

وباعتبار فكرة الإعجاز هي الفكرة الرئيسة في تلوين المباحث البلاغية تلويناً جمالياً؛ فإنه حريٌّ بنا أن نُلقي الضوء على دلالة المصطلح عنده.

أولا: مفهوم الإعجاز

يعرف الباقلاني الإعجاز، بقوله: فهو"الدليل على إثبات نبوة نبينا ما ظهر على يده من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة، والحجج النيِّرة، الخارقة للعادة، الخارجة عما عليه وتركيب الطبيعة والله سبحانه لا يظهر المعجزات، ولا ينقض العادات، إلا للدلالة على صدق صاحبها، وكشف قناعه، وإيجاب الإقرار بنبوته والخضوع لطاعته، والانقياد لأوامره ونواهيه"[5].

وفي حديثه عن إعجاز القرآن، فإن يثبت وحدانية الله سبحانه بواسطة الإعجاز البلاغي، وذلك من خلال تمعنه في العديد من الآيات القرآنية، من قوله عزوجل:﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)﴾[6]، قال: ليس هناك إعجاز بقدر ما "مثله في النظم، وليكن المعنى مفترى لما قلتم فلا إلى المعنى دعيتم ولكن إلى النظم، وإذا كان كذلك كان بينا أنه بناء على غير أساس، ورمي من غير مرمى ؛ لأنه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة وفي شيء مخصوص، على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها، وفي الأشياء أجمعها"[7]، ولذلك "فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلا على أنه منه، ودليلا على وحدانيته"[8].

وقد سجلت دراسته البيانية لإعجاز القرآن ثلاثة أوجه، أخذا عن زملائه الأشاعرة وقد صَرح ذلك بقوله:"ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز:

أحدها: يتضمن الإخبار عن الغيوب: وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه"[9].

الوجه الثاني: ما انطوى عليه القرآن من قصص الأولين وسير الماضين وأحاديث المتقدمين[10].

الوجه الثالث: ما اختص به من الجزالة والنظم والفصاحة الخارجة عن أساليب الكلام[11].

ثانيا: الإعجاز بالنظم القرآني

بهذا الوجه الأخير بنى عليه مجمل تصوراته البلاغية في هذه المسالة، فبديع نظمه المتضمن لفكرة الإعجاز عنده يكمن في وجوه لعل من أهمها:«النظم»، والذي منصب عنده على القرآن كله كوحدة وجملة لا تفصيلا، كنص كامل له ميزاته تميزه عن كلام العرب وفنون إبداعهم، وينفي بذلك فكرة الإعجاز البلاغي[12]، الذي يتعرض للتحليل الجزئي للعبارة ويُلح بإعجاز النظم القرآني بقوله:"ليس الإعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها، وكونها على وزن ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ومترتبة في الوجود، وليس لها نظم سواها، وهو كتتابع الحركات إلى السماء، ووجود بعضها قبل بعض، ووجود بعضها بعد بعض، ولو كان ما سألتم عنه يبطل مزية القرآن، وموضع الأعجوبة في نظمه، لوجب إبطال فضيلة الشاعر المفلق والخطيب المصقع والمرسل الفصيح المقتدر، حتى لا يكون على أحد تكلم باللسان العربي، وإن كان أعيا من باقل لسحبان وائل، وهذا أيضا جهل ممن صار إليه، فبطل ما تعلقتم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

به"[13]، أما "نظم القرآن جنس متميز، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظير متخلص"[14].

وما دام هو مُقرا على أن الإعجاز مبني على عجيب النظم وبديع الرصف، وأنه لا قدرة لأحد على الخلق على تأليف مثله، ولا تأليف سورة منه، أو آية بقدر سورة، رأى أن هناك فرية قديمة ونحلة متهالكة كانت في الماضي تقول بعدم إعجاز القرآن من ناحية نظمه، وقد بدأت تطل برأسها على أيدي المدربين على درس الإلحاد في ثنايا الإيمان، وحجتهم في ذلك مُنطلقة من أن القرآن الكريم تحت طاقة البشر ومقدورهم، وهم عاجزون عن معارضته؛ لأن الله سبحانه وتعالى صرف العرب ضرباً من الصرف، ومنعهم عن الإتيان بمثله ضرباً من المنع، أو أنهم قَصُرت دواعيهم مع قدرتهم عليه. وهذا النوع من الإعجاز يُسمى «الإعجاز بالصرفة».

غير أن الباقلاني وأصحابه كَفَّرُوا هذه الطائفة _ بزعامة أبي إسحاق بن سَيَّار النَظَّام (ت231هـ) وزملائه _ بجملتها الشنعاء وأفكارها البغضاء، في قولهم إن القدرة لا تختلف لاختلاف مقدوراتها، بل يجب اختلافها واختلاف المقدورات لاختلاف قُدرِهَا. لذا أقر بإعجاز القرآن بحسن بيانه وبديع نظمه وتأليفه العجيب الذي لا يقدر عليه أبلغ بشر، وفند هذا المذهب الفاشي الذي جاء به (النَظَّام) وأصحابه، راصداً لأفكاره المنبوذة وناقماً من شبهه السخيفة مسجلاً لسقطاته اللعينة في دراسته لقضية الإعجاز، وقد قال فيه:"قد علمتم أن النَظَّام وشيعته ينكرون أن يكون القرآن اليوم معجزاً، ويجحدون عجز العرب عن الإتيان بمثله ويقولون : إنَّما كان ذلك في أيام النبي صلى الله عليه وسلم لكونه آية له، وإنَّما كان معجزاً لعجزهم وهم قادرون على الإتيان بمثله لأجل التحدي، فعلى هذا يمكن الزيادة فيه"[15].

فالباقلاني دقق النظر في بلاغة القرآن الكريم وبرهن أن كل الأوجه الإعجازية تحيل على طبيعة نظمه وأسلوبه الفريد، الذي يخرج عن تجنيس الكلام الأدبي عند العرب، وهو برأيه سر تفرده عن بقية الأساليب، بالتالي فهو يُعدّ "قنطرة عبر عليها حديث بلاغة القرآن من أفكار تدور على ألسنة العلماء والأدباء ينقلها واحد عن الآخر، وآراء متشعبة فردية غلى أفكار ثابتة منظمة في أسلوب علمي سليم"[16].

وقد أفاض البحث في الإعجاز القرآني المبني على بديع النظم وعجيب التأليف، وجعله في وجوه متعدد[17]، يمكن لنا الإشارة لها بشكل وجيز، فيما يلي:

أولا: منها ما يرجع إلى الجملة القرآنية.

ثانيا: منها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة.

ثالثا: وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها.

رابعا: وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بيِّنا في الفصل والوصل، والعلو والنزول والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم.

خامسا: وهو أن نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهم يعجزون على الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا.

سادسا: وهو أن الذي ينقسم عليه جميع الخطاب.

سابعا: وهو أن المعاني التي يتضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة، ومواقف بعضها بعضا في اللطف والبراعة مما يتعذر عليه البشر ويمتنع.

ثامنا: وهو أن الكلام يتبن فضله ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام أو تقذف ما بين شعر، فتأخذ الأسماع، وتتشوف إليها النفوس.

تاسعا: وهو أن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف حروف الجملة، وهو أربعة عشرة حرفا، ليدل المذكور على غيره وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

عاشرا: وهو أنَّه سهَّل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة.

من هذه الوجوه يتبيّن لنا أن الباقلاني شَرح وبسط خصائص النظم القرآني التي يتميز بها عن الكلام البشري، فأجاد في ذلك بما له من الباع الطويل في التعبير الحسن، وألم بهذه الأوصاف إلماما يكاد يكون شاملا.

ثالثا: النفي والإثبات في النقد البلاغي

نجد الباقلاني في معالجتة للنظم القرآني، يتخذ أسلوبا مميزا في العرض، وذلك بطرحه قضايا جمالية ذا مسحة بيانية تثبت صحة أقواله في هذه الوجوه، فتتحدد رؤية متضاربة في المنهج _حين ذهب للتدليل على سلامتها وصدق برهانها_، بين النفي والإثبات، وهذا ما نلحظه في النقاط التالية:

1)نفي إمكانية استفادة الإعجاز وإثباته من جهة البديع

أطلق مصطلح «البديع» في القديم على الفنون البلاغية التي عرفت آنذاك، ومعنى ذلك أن كلمة «البديع» كانت ترادف في الاستعمال كلمة «البلاغة»، حيث كان يقصد بإحداهما ما كان يقصد بالأخرى .

وكان محتوى مصطلح البديع في مراحله الأولى يستخدم بمعنى:"الجديد في بلاغة الشعر، الذي أتى به الشعراء المحدثون في العصر العباسي، والذي تفاوتت إزاءه _إلى حد ما_ مواقف النقاد والبلاغين العرب، ما بين إنكار وتقليل من شأنه، وإنصاف واعتراف بفضل المحدثين في بعض أنواعه"[18].

والباقلاني ينظر إلى مصطلح البديع نظرة شاملة، مِثلُه مثل سابقيه، ولا يراد به العلم الثالث من علوم البلاغة تلك التي وضع تقسيماتها السكاكي (ت626هـ)، فيما بعد في كتابه (مفتاح

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العلوم)، وإنما يقصد علوم البلاغة بعامة، ولهذا فالبديع عنده "يشمل جميع الخصائص اللغوية والصور الفنية التي أطلق المتأخرون عليها كلمة البلاغة، وهو في ذلك يجري ما عليه العلماء إلى عهده من إطلاق الكلمة على فنون المعاني والبيان والبديع،...فجميع ذلك يدخل عنده تحت كلمة البديع"[19].

وفي تناوله لهذا المصطلح ذكر كثيرا من فنون البديع في كتابه «إعجاز القرآن»، حيث عقد فيه فصلا «في ذكر البديع في الكلام»، وقد جمعها ممن سبقوه وعاصروه[20]، وبعد هذا السرد نَبَّه إلى أن وجوه البديع أكثر مما ذكر، إذ قال:"ووجوه البديع كثيرة جدا، فاقتصرنا على ذكر بعضها، ونبهنا بذلك على ما لم نذكر، كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع"[21]، وإنَّما كان هدفه الوحيد هو ربط الحديث بها بإعجاز القرآن، ليرى هل يمكن تعليل الإعجاز القرآني بها أو لا يمكن!.

ومعلوم أن الإعجاز عند الباقلاني بالنظم، ولكي يبيّن العلاقة بين البديع والإعجاز القرآني، فإنه يفتتح الحديث بسؤال بموجبه يحدد العلاقة، بقوله:"إن سأل سائل فقال: هل يمكن أن يُعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع ؟[22].

وقبل أن يجيب على هذا السؤال. راح يتملى أراء ابن المعتز في ورود البديع في القرآن الكريم، واللغة وكلام الصحابة والشعر من دون أن يحيل عليها[23].

ومن الأمثلة التي تؤكد مذهبه في إطلاق لفظ البديع على جميع الصور البلاغية، قوله:"ذكروا: أن من البديع في القرآن[24]، قوله تعالى:﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[25]، وقوله:﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[26]، وقوله:﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾[27].

فجميع هذه الشواهد لا تخرج أن تكون استعارات في صورة من صورها التي عددها البلاغيون المتأخرون، عندما جعلوا منها التصريحية والتبعية والتمثيلية وغيرها. ثم يقول:"وقد يكون البديع في الكلمات الجامعة الحكيمة، كقوله عزوجل:﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[28]، وفي الألفاظ الفصيحة، كقوله:﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[29] ، وفي الألفاظ الإلهية، كقوله:﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾[30]، وقوله:﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[31].

وفي تبيّينه لتلك العلاقة، فإنه ينقل إلينا رأيين:

الأول: مؤداه"أن من الناس من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي...تسمى البديع"[32]، وهي: الاستعارة، والتشبيه، الغلو، الافراط، والمطابقة...[33]، والفئة التي كان يقصدها في كلامه السابق، هم "أهل الصنعة، ومن صنّف في هذا المعنى من صفة البديع"[34]، وقد ذكرهم فيما بعد، وهم: الخليل ابن أحمد الفراهيدي(ت175هـ)، والأصمعي(ت216هـ)، وعبد الله بن المعتز(296هـ)، وقدامة ابن جعفر(ت337هـ)[35].

وفي تناوله لمصطلح البديع، فقدَّبَين أنه ليس الغرض ذكر جميع المصطلحات والإتيان على جميع صوره، وإنَّما الشأن في بيان دوره في إعجاز القرآن، يقول في ذلك :"وقد قَدَّرَ مقدرون وأنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه"[36].

ويجيب على ذلك، ومُفندا لهذه الفكرة بقوله:"وليس كذلك عندنا"[37]، و"لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر، ووصفوه فيه"، ويعلل ذلك بقوله:"لأن هذا الفن، ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له، كقول الشعر، ووصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة، وله طريق يسلك، ووجه يُقصد، وسُلَّم يرتقى فيه إليه، ومثال قد يقع طالب عليه، فرُبَّ إنسان يتعود أن ينظم جمع كلامه شعراً، وآخر يتعود أن يكون خطابه سجعاً، أو صناعة متصلة، لا يسقط من كلامه حرفاً، وقد يَتَّأتى له لِما قد تعوَّدهُ، وأنت ترى أدباء زماننا يضعون المحاسن في جزء. وكذلك يؤلفون أنواع البارع، ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو خطبة، فيحسنون به كلامهم، ومن كان قد تدَّربَ، وتقدم في حفظ ذلك، استغنى عن هذا التصنيف، ولم يَحْتَج إلى تكلف هذا التأليف، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطا من باع كلامه، وموشحاً بأنواع البديع ما يحاوله من قوله.

وهذا طريق لا يتعذر، وباب لا يمتنع، وكل يأخذ فيه مأخذا، ويقف منه موقفاً، على قدر ما معه من المعرفة، وبحسب ما يمده من الطبع")[38].

أما الإعجاز في نظم القرآن "فليس له مثال يُحتذى عليه، أو يُقتدى به، ولا يصلح مثله اتفاقا، وكما يتفق للشاعر البيت النادر، والكلمة الشارِدة، والمعنى الفذ الغريب، والشيء القليل العجيب، وكما يلحق من كلامه بالوحشيات، ويضاف من قوله إلى الأوابد؛ لأن ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع، فإنما يتفق للشاعر في لمع من شعره، وللكاتب في قليل من رسائله وللخطيب في يسير من خطبه"[39].

الثاني: إن الإعجاز يؤخذ من الوجوه العشرة التي قال بها الرماني[40]، هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان)[41]، يقول:"واعلم أن الذي بيناه قبل هذا، وذهبنا إليه، هو سديد، وهو أن هذه الأمور تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما يمكن الوقوع عليه، والتَّعَمُّل له، ويُدرك بالتعلم، فما كان كذلك، فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به[42].

والآخر: مالا سبيل إليه بالتعلم، والتَّعَمُّل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه"[43]. ويضرب لذلك العديد من الأمثلة البلاغية، من جناس وطباق وتشبيهات جارية في القرآن الكريم وعلى ألسنة الشعراء[44]، وغيرها من المصطلحات البلاغية.

وبعد هذا الإنكار من معرفة الإعجاز على جهة هذه الفنون البلاغية في حد ذاتها، فإنه يتضح لنا أن المعجز عنده من هذه الوجوه هو:

"**أولا**: حُسنها البالغ وسموها.

ثانيا: ارتباطها واتساقها مع بقية الكلام، على نحو بالغ الروعة والتكامل، بحيث لا يحس القارئ بأن فيه قدرا من التفاوت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البلاغي، في هذا الكلام الرباني، الذي يضارع بعضه بعضا في البلاغة والفصاحة"[45].

2)نفي الشعر من القرآن الكريم

لقد وَضَحَ الباقلاني ذلك في العديد من المواضع ما يُميز أسلوب القرآن عن غيره من أساليب الكلام، وانطلق في توضيحه من فكرة التباين بين البلاغة القرآنية والبلاغة الإنسانية، وكان منشأ هذا التباين لديه قائماً على فكرة استواء البيان القرآني، وتفاوت الأسلوب البشري. وهذا الاستواء في البيان القرآني "يدل على صدوره من الرُّبوبيَّة، ويُبين وُرودِه عن الإلهية"[46].

ولهذا لا يُقال إن هذا الاستواء صادر عن الإنسان ؛ لأن البيان عنده يختلف بين الجودة في مواطن، والرداءة في أخرى، أي إن قدراته تختلف بين العلو والضعف، فيتفاوت في ذلك، ولا يبلغ حد الاستواء، ولذلك عندما تُدَقِقُ النظر إلى كلم البيان القرآني "تعْلَم وُرودها عن الإلهية ودلالتها على الرُّبوبيَّة، وتتحقق أن الخطب المنقولة عنهم، والأخبار المأثورة في كلماتهم الفصيحة من الكلام الذي تَعْلَقُ به الهمم البشرية، وما تحوم عليه الأفكار الآدمية، وتعرف مُباينتها لهذا الضرب من القول "[47].

وقد كان الشعر العربي نموذجاً لدى الباقلاني للتفاوت البشري، الذي عليه بنى نظريته في معرفة قضية الإعجاز، حيث اعتمد على الطريقة التحليلية لإبراز فكرة الموازنة بين التفاوت البشري الماثل عنده في الشعر العربي، وبين البيان القرآني المتمثل في طريقة أسلوبه الفريد[48]، وقد وضَحَ منهجه من هذه الفكرة لمن كان غافلا عنها، حتى يزيد من نظره بصيرة، بقوله : "فإن أراد أن نقرب عليه أمراً، ونفسح له طريقاً، ونفتح له باباً _ليعرف به إعجاز القرآن_ فإننا نضع بين يديه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب، ونصور له صور كل قبيل من النَّظم و النثر، ونُحْضِرهُ من كل فن من القول شيئا يتأمله حق تأمله، ويراعيه حق رعايته، فيستدل استدلال العالم ويستدرك استدراك الناقد، ويقع له الفرق بين الكلام الصَّادر عن الرُّبوبيَّة الطالع عن الإلهية الجامع بين الحُكْم والحِكم...ونعمد إلى شيء من الشعر المجمع عليه، فنبين وجه النقص فيه، ونَدلُّ على انحطاط رُتبته ووقوع أبواب الخلل فيه"[49].

وأَجْمَلَ حديثه في ذلك من أن البليغ مَهْمَا وصَلَ إلى قِمة البلاغة والفصاحة، فإن سِمته القصر، ولذلك نجده يقول:"ألا ترى أن الشَّاعر إذا جاء إلى الزُّهد قصر، والأديب إذا كلم في بيان الأحكام وذكر الحلال والحرام، لم يكن كلامه على حَسب كلامه في غيره. ونظم القرآن لا يتفاوت في شيء، ولا يتفاوت في أمر، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى والفضل الأسنى "[50].

ويزيد توضيحه أكثر في تحليله النقدي لقصيدتي امرئ القيس والبحتري، _باعتبارهما من الشعراء الفحول في عصرهما، وعلى كِبر محل قصائدهما في الأدب العربي_، بوقوفِهِ على عُوارِهما والخلل الواقع في نظمهما، ليبرهن أن نظم القرآن جنس متميز، وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير متخلص.

3)نفي السجع من القرآن الكريم

يواصل الباقلاني_كغيره من أصحابه الأشاعرة_ في كلامه عن التَميُّز والتَفرد لأسلوب القرآن، وهذا ما جعله يُسرف في رصد الفروق بينه وبين غيره من أساليب الكلام، حتى قال بنفي السجع عن القرآن، باعتباره نوعا من أنواع أساليب كلام البشر، لما يحمله من شائبة التكلف والتعسف على ألسنتهم، وبخاصة الكهنة، وحجته في كراهة السجع تنطلق من فهمه لحديث رسول الله(صلى الله عليه وسلم) النهي عن السجع إطلاقا، من قوله:«أَسَجَعاً كَسَجَعِ الكُهَّان»[51]، واستحدث مصطلحا بديلا باتفاق مع علماء الأشاعرة، وهو:«الفاصلة»، وانتصروا إليه، وجعلوه حجة لهم، وهذا الانتصار لم يأتِ اعتباطيا، وإنَّما جاء عن ذا قناعة من وروده في الذكر الحكيم، من قوله عزوجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[52] وقوله:﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾[53]، وقوله:﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[54]، وغيرها من الآيات.

وهذه الفكرة جاءت لديه وليدة الفكر الكلامي، بِتَنْزيه كلام الله تعالى من أن يُشبهه غيره من كلام العرب، وإصراره أن أسلوبه مُغاير لكل الأساليب ومُباين لها.

انطلقت نظرته في ذلك، أن فيه بعض الكلام الموزون، وهي في الحقيقة فواصل، وهو ما صَرَحَ به، بقوله:"يوجد في القرآن كلام على معنى السجع، وليس المراد السجع، لأن معاني القرآن لا ترتبط بمواضع عقد السجع، فخرج بذلك أن يكون سجعا، وكذلك يوجد فيه ما أوله أول شعر، ولو بقي وجعل على روي واحد، وأجزاء متساوية، ولكنه تخرج أواخره عن ذلك، فتخرج عن الشعر، وكذلك يوجد فيه ما لو فصل عما اتصل به لأشبه الخطب، إلا أنه يأتي على وزن آخر، فيخرج عن ذلك، فلما كانت الحال ما وصفنا التبس أمره وأشكل، إلا على أهل العلم باللغة _العربية_ ؛ لأن فيه بلاغة وبراعة لا يقدر أحد من الفصحاء على مثلها"[55].

وبذلك ينفي الباقلاني أن يكون في القرآن الكريم هذه الأشكال النثرية المعروفة لدى العرب والجارية على لسانهم ؛ لأن أسلوبه يختلف كل الاختلاف عن أنواع هذه الأساليب النثرية شكلاً ومضموناً، لأن له طابعه الخاص الذي انفرد به، ولم يتهيأ لكلام سواه، ويعقد في ذلك فصلين لنفي هذه الفنون النثرية عن قداسة النظم الحكيم، ألا وهما : الشعر والسجع _كما سبق الذكر_، وفي ذلك يقول:"لو كانوا يعتقدونه شعراً، ولم يروه خارجاً عن أساليب كلامهم، لبادروا إلى معارضته؛ لأن الشِّعر مسخَّر لهم، مسهَّل عليهم، لهم فيه ما علمتَ من التصرف العجيب، والاقتدار اللطيف فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، ولا عولوا عليه: عُلِمَ أنهم لم يعتقدوا فيه شيئا مما يقدر الضعفاء في الصنعة، والمُزمِدون في هذا الشأن"[56].

رابعا: أثر الإعجاز والنقد في الدراسات الاستشراقية الحديثةلقد أثرت الدراسات القرآنية العربية منذ القديم في الأعمال العلمية الغربية، وخاصة دراسات القرون الهجرية الأولى، بحيث كانت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المدرسة الغربية ابنة بارة بالدراسات العربية، تسير على خطاها وتتأثر بمسائلها وتتنبه إلى حقائقها، حتى أن بعض الدراسات اللغوية وقفت عند بحوثها بشكل تطبيقي بكل ما بذله علماء الإعجاز وبعض علماء الكلام من جدال يخص منزلة القرآن على المستوى العقيدي عامة، وطبيعة وجوده الأسلوبي بوجه خاص، فثبت أن سمة التحول النوعي، كانت المنطلق الأساسي الذي حكم ذلك الجدال، وبالتحديد بين القرنين الرابع والخامس الهجري، ولم يبق أي شك في أن الدراسات المتأخرة _دراسة عبد القاهر الجرجاني مثلا_ كانت بمثابة تطوير حقيقي لمعظم التصورات البلاغية والنقدية السابقة، وأن الجهود التي نسبت لها سمة الريادة _دراسة الرماني(ت386هـ) والخطابي(ت388هـ)_ كانت توطئة عامة[57]، وجاء الباقلاني(ت403هـ) جامعا لتلك الآراء النقدية والبلاغية ليستفيد منها ويتيح لنفسه فرصة القراءة واستخدامها لتابعيه.

وقد بلغت الدراسات الغربية مكانة محترمة بسيرها على النهج الاستشراقي في محاولة تطبيق ما اتسم به جهد الباقلاني من جدة نوعية، وما أسهم به على مستوى تطور البحث البلاغي والنقدي لدى العرب بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، ونبهت هذه الدراسات إلى خطورة مشروعه النقدي المتضمن في كتبه الآتية: (إعجاز القرآن والتمهيد والإنصاف)، مما حدا بالبحوث العربية التي تلتها إلى محاولة التعامل معها عن قرب.

وقد تعددت الدراسات الإستشراقية التي تتحدث عن أعمال الباقلاني، منها دراسة: (**غوستاف فون كرونباوم** Goustave von Grunebaum):"**في نظرية النقد والبلاغة العربيين**"، و(أنجليكا **نويفرت**): "**طريقة الباقلاني في إظهار إعجاز القرآن الكريم**"، و(**جوهان بومان** Johan Bouman):"**تصور الباقلاني ضمن الصراع المتعلق بالقرآن**"[58]، وكلها دراسات ترى أن القاسم المشترك بينها هي: عدّ الباقلاني حلقة أساسية في ربط الممارسة النقدية في حق نصين الأدبي والقرآني، وعلى ذلك الاعتبار تمت الدراسة بطريقة علمية حاسمة تغري بتخصيص حيز مستقل لما ورد فيها، بهدف معرفة الجهود العربية في الدراسات القرآنية، ومراقبة ما بذلته المدارس العربية الحديثة من هذه الوجهة بقصد المقارنة ورد الاعتبار.

ويمكن أن نلقي نظرة حول هذه الدراسات، منها:

1.وثيقة من القرن العاشر، في نظرية النقد والبلاغة العربيين لغوستاف فون كرونباوم[59]:

يكاد يكون هذا البحث الذي أنجزه المستشرق فون كرونباوم ما هو إلا ترجمة حرفية لمجموعة فصول كتاب الباقلاني:(إعجاز القرآن)، نتيجة انبهاره بالأعمال الفكرية والدراسات القرآنية التي أعجزت العرب _باعتبارهم أفصح القوم_ أن يأتوا بمثله أو بآيات مثله، وما استنتجه من التقاء النصوص بكاملها في طرح مشروع نقدي أجرى الباقلاني من خلاله ملامسة لعدد من النصوص (القرآن والشعر)، واكبها إصداره لمجموعة من الأحكام التي لم يخرج _كما يراها_ عن دائرتي الاستحسان والاستهجان، وهذه الفصول هي:

- فصل (ذكر البديع من الكلام).
- بين كلام البشر وبين القرآن.
- الكلام على جودة شعر امرئ القيس، ثم نقد معلقته.
- بيان استحالة عقد المقارنة بين الكلام البشري وبين القرآن.

وبمنهجية هذه الفصول استفاد من مجهود الباقلاني العلمي من حيث أهميتها والتقنيات المتبعة في انجازها، وأبدى من خلالها ملاحظات قيمة عن نقده الفني، وبحديثه عن قضية الإعجاز القرآني في مسار الفكر الإسلامي منذ القرن التاسع (الثالث الهجري)، فإن الحديث يفضي به إلى المقارنة بين تصور المسيحيين حول كتابهم المقدس، وبما قام به مفكرو الإسلام في شأن القرآن، واستنتج في الأخير أن القرآن الكريم كان أكثر استحقاقا للاهتمام بفضل طبيعته الأسلوبية الخاصة، وشهد أن القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) في إطار نظرية الإعجاز بداية حقيقية للانتباه إلى أسلوب القرآن من وجهة جمالية، بالرغم من أن المشروع لم يكن قد بلغ مستوى التحليل الأسلوبي القار.

وفضلا عن هذه القضايا، فقد رأى الباحث أن استقلال الباقلاني بشخصية مميزة عن أعلام المدرسة النقدية العربية مسألة واضحة، على أن ريادته في مجال نقد الأدب العربي، متصلة بشكل وثيق مع فصله الوارد في موضوع البديع، وأنه لم يسبقه أحد إلى مثل هذا العمل.

وفي الختام أعرب عن أمله أن تفيد هذه الترجمة طلاب الغرب في استطلاع ما تتسم به الكتابة والنقد العربيان، مع العلم أن المستشرق كرونباوم كان مشروعه في تعامله مع إعجاز الباقلاني وترجمته لبعض فصوله بمقتضى اشتراكهما في الوازع النقدي، ولمكانة العمل الجبار الذي قام به العالم الجليل الباقلاني فإن عمله لا ينكر قيمته، وملاحظاته لا يستهين بها، ولذا فترجمته تعد جانبا منه، بحيث ذيله المستشرق بحاشية تسرد الملاحظات النقدية والبلاغية والتاريخية النادرة، مشفوعة بمناقشة الباقلاني للآراء النقدية، استنادا إلى تقنية المقايسة والمقابلة.

وبالرغم من الجهد الذي بذله المستشرق كرونباوم في نقل فصول الباقلاني، إلا أن عمله يسجل عليه مثالب لنقله للقارئ الغربي ثلاثة فصول من إعجاز القرآن وعدها ظواهر فريدة في النقد، وغاب عنه الفصل الذي قارن فيه الباقلاني النظم في الشعر بالنظم الذي في القرآن الكريم، وهو فصل بطبيعة الحال صعب المدار على من غابت عنه السليقة نتيجة عدم فهمه، وبالتالي ضاع أهم غاية للمتلقي في الحجة لعمله، مما يعد عمله مشوه، والقار الذي لا منازع فيه أن كتاب (إعجاز القرآن) لو فهمه بوعي صائب وعقل ثاقب لتم منحه مرتبة أرفع من تلك التي استفاد منها القارئ العربي من مشروعه هذا.

2.طريقة الباقلاني في إظهار إعجاز القرآن الكريم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لأنجليكانويقرت[60]:

استهلت المستشرقة أنجليكا نويقرت دراستها بمقدمة مختصرة توضح فيها قيمة أعمال علماء الإعجاز للقرن الرابع الهجري (الرماني والخطابي والباقلاني)، من حيث استنادهم إلى منهجية محددة في عرض القضايا الأدبية من ظاهرة الإعجاز القرآني، وذلك بما يمثل توطئة وصف علمي شامل لـ«طابع القرآن الأدبي».

والدراسة التي حظيت بالاهتمام هي دراسة الباقلاني في كتابه:(إعجاز القرآن) المنقسم أصلا إلى قسمين: الأول: عرض العناصر البديعية الجارية استعمالها في الرسائل والخطب، مع الإقرار أنها لا تمثل أي جانب إعجازي في القرآن الكريم.

الثاني: إجراء موازنة بين ما هو أعلى قمة في الشعر، وبين الأسلوب القرآني، أو ما أسماه بالنظم، أي: الجانب التركيبي للآية القرآنية.

وهذه النقطة الثانية تمثل الحجة الأساسية في تحليل المستشرقة للكشف عن الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم، بحيث بدأت الباحثة بمسألة التركيب، وانطلقت فكرة المقاربة من ضبط مفهوم الكلمات كوحدات صغيرة تتشكل منها الآيات القرآنية، مع العلم أن الباقلاني لم يقدم بشكل محدد مفهوم الكلمة، وإنما يدرك معناها من خلال السياق الذي ترد فيه، وأن استقلاليتها خاضعة للمعيار البلاغي لا البنائي، ويبدو أن كفاءة الباقلاني في هذا الصدد مبنية في طرف منها على اتصاله ممارسة وتجربة بالقرآن (تلاوة وترتيلا)، ذلك أن (علم الوقف) وما يتضح في ضوئه من اختلاف في الأهمية بين المقامات أسهم في توصله إلى نتائج تتصل بالموضوع.

وقد لاحظت المستشرقة أنجليكا إمكانية التكهن بوجود التقاء معين، بين تعيين الباقلاني لهذه الوحدات وبين ما ورثته المدرسة النقدية الغربية عن الجهد الأرسطي، فيما يتصل بانقسام التركيب النثري إلى وحدات تركيبية صغيرة (كولونات)، وكانت الانطلاق الفعلي في التحليل اللغوي عندها من نطق المتكلم نفسه مع تعيين نقطة الراحة والوقف، وهي النقطة المهمة والتي لها دخل كبير في عدّ حجم الوحدات التركيبية الصغيرة كوحدة تثبت اختلافها عن مفهوم الجملة، لأنها تكون أصغر حجما منها أو أكبر حسب الطابع النفسي الذي تقترن به.

وقد تبين من خلال تحليل الباقلاني المشابه لمقياس الوحدات التركيبية الصغيرة أنه تتبع ظاهرة الانقسام التي تطبع الآيات، وتستند وظيفة التقسيم هذه إلى ظاهرة (الفاصلة)، إذ ليست الفاصلة إلا الكلمة الأخيرة من الآية، والظاهر أن تناسب الكلمات فيما بينها أساس ما تعرف به الآية من نظم، فسمي التناسب القار انفصالا وتباعدا، وقد لاحظت المستشرقة جميع الصلات التي تجمع الكلمات فيما بينها، وكانت الصلة إما بالتعلق والتوازي، أو بتكرار المداخل.

وطرحت الباحثة فكرة الاستفادة من عمل بيتسون Beteson، بخصوص الطريقة التي طبقتها على المجال الأسلوبي في النص، وقد ارتكزت هذه الطريقة على ضبط الروابط البنائية والصرفية واللفظية المتوفرة عبر مجموعة من الكلمات القرآنية بما يفيد خاصية الائتلاف فيما بينها، ووضحت ذلك بالكشف عن مظهر الانفصال الطارئ على أجزاء من آية واحدة، بالرغم من التواؤم المكاني الجامع بينها، فثبت أن كلمتي الآية، من قوله تعالى:﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[61]، لا تجتمعان إلا بكلمة (الله) فحسب، وحصل مع ذلك ائتلاف ثابت بينهما، ولم يوضح الباقلاني تفسير هذا التحليل، ولكن ثبت لديه أن هذا الائتلاف (غير المباشر) أشد تأثيرا في السامع من الائتلاف المباشر، مما أفضى بالباحثة إلى القول بأن الفضل راجع في ذلك إلى خصائص أخر كلمة في الآية، وهذا ما أدى بها إلى البحث في مسألة النظم القرآني دون تحليل أو إيضاح مثل ما فعل الباقلاني[62].

خاتمة

بهذه القضايا اللغوية المتضاربة، فقد ترك الباقلاني أرثا بلاغيا له علاقة بالإعجاز القرآني يفتخر به العرب، وجعل خلَّفه ثروة طائلة من العبارات الطنانة والرنانة، استهوت الباحثين واستثارت حافظتهم على اختلاف ثقافاتهم وتنوع مشاربهم من دارسين عرب ومستشرقين غرب، ولذلك أشارت عائشة عبد الرحمن إلى شيء من هذا، منبِّهة على تأثيره فيمن جاء بعده ممن بحثوا في الإعجاز، بقولها:"ويمضي الباقلاني بعد أن ترك للبلاغيين ممن تكلموا في الإعجاز بعده، هذا الرصيد الضخم من ألفاظه الرنانة، وعباراته الفخمة، في النصاعة والبراعة، والفخامة والسلاسة، والنضارة والغضارة، والرونق والماء، والحسن والبهاء"[63].

وفي تتبعنا لهذا الدراسة يمكن أن نسجل أبرز النقاط التالية:

- إن الباقلاني جعل النظم القرآني في الذروة من البلاغة، وعَدَّه الطريق المحقق للإعجاز_ متأثرا بموقف أصحابه الأشاعرة _، وكان يقصد بمصطلح النظم بمعنى تأليف العبارة وبناء نص تراعى فيه العلاقات وتتلاءم فيه الألفاظ مع مواضعها التي وضعت فيها.

- كان يقصد بمصطلح البديع جميع الفنون البلاغية بعامة مطلقة من دون حدود تميزه، وليس العلم الثالث من علومها، ولم يكن هذا ديدنه، بل حتى من سبقوه وعاصروه، وكان هدفه الربط بين البديع والتحسين، وفي تحديد علاقته بالإعجاز، بَيَّنَ أنه ليس الغرض ذكر جميع المصطلحات والإتيان على جميع صوره، وإنَّما الشأن في بيان دوره في إعجاز القرآن، ولذلك وجده بديعان: بديع لا علاقة له بالإعجاز، ممثلا في الرأي الأول، وبديع له علاقة بالإعجاز ممثلا بقسم من فنون الرأي الثاني، وفي هذا التضارب في الآراء واختلاف في الأحكام، فلعل السر في ذلك يعود إلى أن المصطلح البلاغي في عهده لم يكن مستقرا. وبهذا الرأي يقسم بلاغة البديع إلى قسمين: بديع إلهي، وآخر بشري، والقسمة فيه تحيل بالنتيجة على موازنة بين ما هو كلام رباني معجز، وكلام بشري متفاوت في قدرة التعبير وقصورهم في الوصول إلى المعنى المنشود.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

❖ استطاع أن يؤكد أن أسلوب القرآن الكريم يختلف كل الاختلاف عن الأساليب الأدبية المعروفة لدى البشر، وأن تفاوتهم في قدرة التعبير والبلاغة وقصورهم في الوصول إلى المعنى المنشود حاصل، وقد وضح هذه الفكر بنماذج من الشعر العربي الذي عدَّهُ سمة بارزة للتفاوت البشري، ولذلك نفى الشعر من القرآن الكريم، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل امتد إلى نفي السجع من القرآن _ وهذه الفكرة جاءت لديه وليدة الفكر الكلامي، بِتَنْزيه كلام الله تعالى من أن يُشبهه غيره من كلام العرب _، وعَّدهُ نوع من أنواع أساليب البشر، جاعلا مصطلح الفاصلة بديلا عنه، إلا أنه في هذه الفكرة قد أجهد نفسه ولم يوفق فيها، وقد لقي ردا عنيفا من خصومه الذين أقروا بوجوده في القرآن الكريم.

❖ تأثر الدراسات الاستشراقية بالموروث العربي قديما، وبخاصة ما تعلق بالدراسات القرآنية، وكانت دراسة الباقلاني محور النقاش لدى الكثير من الباحثين الغرب، وقد استفادوا من منهجيته العلمية في معالجة القضايا اللغوية والأدبية وتطبيقها على كتب سماوية أخرى على غرار القرآن الكريم، مثل ما فعل غوستاف فون كرونباوم الذي استنتج أن القرآن الكريم كان أكثر استحقاقا بالاهتمام بفضل طبيعته الأسلوبية الخاصة، وشهد أن القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) في إطار نظرية الإعجاز بداية حقيقية للانتباه إلى أسلوب القرآن من وجهة جمالية، بالرغم من أن المشروع لم يكن قد بلغ مستوى التحليل الأسلوبي إلى الحد الذي عرف به عند المتأخرين للعالم الباقلاني.

الهوامش

1_ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص118.

2_ أبو منصور الثعالبي: فقه اللغة وسر العربي، ص15.

3_ أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ص09 .

4_ عبد القادر حسين : المختصر في تاريخ البلاغة، ص23 .

5_ الباقلاني: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، ص81.

6_ سورة هود، الآية13_14.

7_ عبد القاهر الجرجاني: الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص129.

8_ إعجاز القرآن، ص17.

9_ المصدر نفسه، ص33.

10_ تمهيد الأوائل تلخيص الدلائل، ص95. وينظر: الإنصاف، ص60. ونكت الإنتصار لنقل القرآن، ص59-242-243. وإعجاز القرآن، ص34-49.

11_ المصدر نفسه، ص86. وينظر: والإنصاف، ص59. ونكت الإنتصار لنقل القرآن، ص59-245. وإعجاز القرآن، ص35-50.

12_ التي نادى بها الرماني(ت386هـ) قبله، ينظر: النكت في إعجاز القرآن.

13_ تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، ص91 .

14_ إعجاز القرآن، ص159 .

15_ نكت الإنتصار لنقل القرآن، ص241 .

16_ أحمد قتحي عامر: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ص32.

17_ ينظر: إعجاز القرآن، ص35-46.

18_ جميل عبد المجيد:البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص13-14.

19_ عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، ص286 .

20_ من أمثال: الرماني، والخطابي، وأبي هلال العسكري...

21_ إعجاز القرآن، ص107 .

22_ المصدر نفسه، ص101 .

23_ نفسه، ص66. وينظر: البديع، ص76 وما بعدها.

24_ ينظر: إعجاز القرآن، ص66 .

25_ سورة الإسراء، الآية 24 .

26_ سورة الزخرف، الآية 04 .

27_ سورة يس، الآية 37 .

28_ سورة البقرة، الآية 179 .

29_ سورة يوسف، الآية 80 .

30_ سورة النمل، الآية 91 .

31_ سورة النحل، الآية 53 .

32_ إعجاز القرآن ، ص275 .

33_ المصدر نفسه، ص225 .

34_ نفسه، ص101 .

35_ ينظر: المصدر نفسه، ص66-80.

36_ نفسه، ص 107 .

37_ نفسه، ص107 .

38_ نفسه، ص111-112 .

39_ نفسه، ص112 .

40_ ينظر: النكت في إعجاز القرآن، ص70 .

41_ ينظر:إعجاز القرآن، ص262-275.

42_ ينظر: المصدر نفسه، ص285 .

43_ نفسه، ص275 .

44_ ينظر: نفسه، ص275-276 .

45_ أحمد جمال العمري:المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، ص214 .

46_ إعجاز القرآن، ص 187 .

47_ المصدر نفسه، ص199 .

48_ وهذا المنهج الذي سار فيه الباقلاني، أعني الموازنة بين أسلوب القصيد البشري و أسلوب الكلام الرباني، فَنَدَهُ إحسان عباس، وعَدَّهُ غير سليم النتائج ؛ لأنه يوحي بالموازنة بين شيئين متباعدين، رغم محاولته بنفسه جاهداً أن ينفي الموازنة . ينظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص345 .

49_ إعجاز القرآن، ص 126 .

50_ المصدر نفسه، ص200 .

51_ ينظر الحديث: ابن قتيبة: غريب الحديث، ص 317 .

52_ سورة الأعراف، الآية 52 .

53_ سورة الأعراف، الآية 133 .

54_ سورة هود، الآية 01 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

55_ نكت الإنتصار لنقل القرآن، ص 250 .

56_ إعجاز القرآن، ص 53 .

57-Johan Bouman: le conflit autour de coran et la solution d'albaqilani, amsterdam.1959.p42

58-Johan Bouman: le conflit autour de coran et la solution d'albaqilani, amsterdam.1959.

59-Goustave von Grunebaum: Atenth century document of arabic literary theory and criticism, the chicago press. Illinois. University of 1950.

60_ أنجليكا نويقرت: طريقة الباقلاني في إظهار إعجاز القرآن الكريم، دراسة أصدرتها وداد القاضي ضمن (دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس) في بيروت، الجامعة الأمريكية، ط1، 1981.

61_ سورة الشورى، الآية53.

62_ ينظر: عبد الإله أبو مارية: النقد والإعجاز عند أبي بكر الباقلاني، نشر المعرفة، مراكش المغرب، ط1، 2003، ص37_40.

63_ عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن و مسائل نافع بن الأزرق، ص106.

قائمة المصادر والمراجعالقرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

أ_المصادر

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (ت403هـ) :

1_ إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط3، 1971 .

2_ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق محمد زاهد الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، الأزهر الشريف مصر، ط2، 1421هـ / 2000م .

3_ تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، تحقيق محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، دط، 1366هـ/1947م .

4_ نكت الإنتصار لنقل القرآن، دراسة وتحقيق محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية القاهرة، دط، 1971م.

ب_المراجع العربية

5_ أنجليكا نويفرت: طريقة الباقلاني في إظهار إعجاز القرآن الكريم، دراسة أصدرتها وداد القاضي ضمن (دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس) في بيروت، الجامعة الأمريكية، ط1، 1981.

6_ الثعالبي، أبو منصور(ت430هـ):فقه اللغة وسر العربية، تحقيق حَمد طمَّاس، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط2، 2007.

7_ الجرجاني، عبد القاهر (ت471هـ):الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعرفة بمصر، دط، دت.

8_ حسين، عبد القادر : المختصر في تاريخ البلاغة، دار الشروق، بيروت القاهرة، ط1، 1402هـ/1982م.

9_ الخطابي، حمد بن محمد (ت388هـ): بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، دط، دت.

10_ الرماني، أبي الحسن علي بن عيسى(ت386هـ): النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بصر، دط، دت .

11_ عامر، أحمد قتحي: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1988.

12_ عباس، إحسان: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، دار الشروق، عمان الأردن، ط1، 2001م.

13_ عبد الرحمن بنت الشاطئ، عائشة (ت1998م) : الإعجاز البياني للقرآن و مسائل نافع بن الأزرق، دار المعارف، مصر، دت، دط.

14_ عبد المجيد، جميل: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1998م.

15_ العسكري، أبو هلال (ت395هـ) : كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1401،1 هـ/1981م .

16_ العمري، أحمد جمال : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، نشأتها وتطورها حتى القرن الرابع الهجري، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دط، دت.

17_ ابن قتيبة، أبي عبد الله محمد بن مسلم (ت276هـ) : غريب الحديث، تحقيق ودراسة ألسنية رضًا السَّويسي، الدار التونسية، تونس، دط، 1979م.

18_ أبو مارية، عبد الإله: النقد والإعجاز عند أبي بكر الباقلاني، نشر المعرفة، مراكش المغرب، ط1، 2003.

19_ مخلوف، عبد الرؤوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، دط، 1973م .

20_ ابن المعتز، عبد الله (ت296هـ) : البديع، اعتنى به ونشره أغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، ط2، 1399هـ/1979م .

3_المراجع الأجنبية

21_ Johan Bouman: le conflit autour de coran et la solution d'albaqilani, amsterdam.1959.

22 _Goustave von Grunebaum: Atenth century document of arabic literary theory and criticism, the chicago press. Illinois. University of 1950.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com